حُلمٌ بعيدٌ

حلم بعيد
قصص
أسماء بوزيد
الإسكندرية : الحسناء للنشر
الطبعة الأولى : ٢٠١٨
ISBN 978 -977-6535-65-7
رقم الإيداع : ١٧٢٢٠ / ٢٠١٨
ديوى : ٨١٣
٨٠ ص ، ٢٠ سم

{ جميع الحقوق محفوظة © }

الإسكندرية ، ج . م . ع
٠١٠١٨٨٣١٣٦١
٠٣/ ٥٧٦٥٧٧٧
المدير العام : عادل أبو الأنوار

المراجعة اللغوية : عادل أبو الأنوار
الإخراج الفنى : أمير مصطفى

حُلمٌ بعيد

مجموعة قصصية

أسماء بوزيد

حسناء للنشر

كلّ الحبّ لأولئك الذين لم نتحدّث عنهم...

أولئك الذين تجاهلهم التّاريخ بعد أن صنعوه...

تحدّثي عنّي!

الأشياء التي تأتي صدفة، هي في الحقيقة من صنع قدر، كان يرتّب لها ويدع لنا رسم التّفاصيل حتّى يخيّل لنا أنّنا طرف في اللّعبة أو طرف في الحبّ.. كذلك الصّباح الذي لم يكن كباقي الصّباحات التي سبقته، أو تلك التي تلته. كان صباحًا استثنائيّا، لكنّه لم يعرف ما الذي كان يميّزه تحديدًا دون سواه. حتّى رآها... لم يكن من المفترض به أن يراها، لكنّه فعل. قد تكون تلك مشيئة القدر، وقد تكون هي نفسها قدرًا... قدره!

كانت كالحلم، وككلّ أحلامه تلاشت بسرعة بين الأشجار. توارت عن ناظره كسحابة عبرت سماء أفكاره وأمطرت حيرة ودهشة. أشار عليه قلبه أن يتبعها، لكنّ عقله لم يرض. أيّ عقل؟

لقد فقد المسكين عقله مذ رآها وهو الذي كان من الأساس مجنونا. أخذت رجلاه تزحفان لهفة نحو أثرها، لكنّه توقّف فجأة! تذكّر أنّه لا يستطيع أن يسلك ذلك الدّرب، لأنّها مخصّصة للنّساء في هذا الوقت من النّهار. إذن هي حتما تعمل في الحقل.

النّساء اللواتي كنّ يعملن في الحقول كان عليهنّ احترام قواعد معيّنة، كالخروج في أوقات محدّدة وسلوك طريق مخصّصة لهنّ، تفاديا للاتّصال المباشر وغير الضّروريّ مع الرّجال!

إن ضُبط هناك في ذلك الحين، لوقع في ورطة. لقد غاب ذلك عن باله تمامًا. وبينما هو كذلك يتقلّب بين حماس وتردّد، قطع حبل أفكاره صوت قلق: "هواري؟ ماذا تصنع هنا؟".

رنّ اسمه في أذنه كجرس مألوف. لم يكن يعرف معنى اسمه الذي أهداه له جدّه، ليلة ميلاده المُتعِبة. لم يكن يعلم أنّ له اسمًا بربريّا يعني "المقاتل". فهل كان جدّه على علم بذلك، حين سمّاه الهوّاري؟ أم أنّ القدر كان يجهّزه للمعارك في صمت؟

التفت ليجد والدته تقف خلفه في ذهول وقلق. لم يكن قد عاد إلى البيت منذ يومين، وكان العساكر الفرنسيّون يبحثون عنه في كلّ مكان. أمّا أبوه فقد تعب من طيشه وتهوّره، وقرّر أن يتجاهل غيابه. شهقت أمّه وضمّته إلى صدرها في عتب.

"هل انضممت إلى الجبهة؟ أنت لا تزال صغيرًا يا ولدي." قالت ودموعها تكشف عن نفسها أمامه لأوّل مرّة. ارتبك أمام نحيبها، لكنّه استجمع أنفاسه وأجاب بشيء من الحزم: "أنا لم أعد طفلاً صغيرًا! ثمّ إنّني لم أنضمّ إلى الجبهة... ليس بعد!" كان مزهوّا بعض الشّيء باعتقاد أمّه أنّه انضمّ إلى الثّورة، فقد رأى نفسه حينها مجاهدًا عظيما يهابه الفرنسيّون.

"لكنّك قتلت فرنسيّا، إن وجدوك فسوف ينتقمون منك أيّما انتقام، وأنا قلبي عجوز لا يتحمّل فقدانك هكذا. عليك أن تختبئ في مكان آمن حتّى يأتي الله بالفرج..." خوفها كان أكبر من ذلك بكثير فهي لا تملك غيره، وكان الخوف كلّ ما بيدها فعله لأجله.

"لا تقلقي أميمه، سأكون بخير".

سكت قليلا ثمّ أردف:

"ستُفرج بإذن الله، لم يبقَ إلّا القليل... القليل فقط لا غير".

لم يكن متأكّدا في قرارة نفسه إن كان قد قال ذلك لأنّه على يقين بأنّه سيحدث فعلا، أم أنّه أراد بكلامه طمأنة أمّه المسكينة. أو طمأنة نفسه... ربّما.

أزاحت الخالة زليخة "حايكها" عن ظهرها، كأنّها تسحب كلّ عطفها وحنانها دفعة واحدة، لتغطّي به فلذة كبدها. تراه للمرّة الأولى رجلا طويلا عريضًا، بعدما كانت لا ترى فيه سوى الصّبيّ الصّغير الطّائش، الذي كان يوسع أولاد الجيران ضربا و يزعج صاحب الدّكان المقابل، فتنهال عليها الشّكاوى من كلّ صوب وحدب.

كانت ترى للمرّة الأولى ملامحه الشّقيّة وقد اكتسبت لونا خفيفا من النّضج واكتست حلّة من الجدّ. لاحظت للمرّة الأولى أنّ شيئا ما بتفاصيل وجهه كان قد تغيّر. لكن الحقيقة أنّ أشياء كثيرة كانت قد تغيّرت يومها ولن تعود كما كانت...

وقّع الوشم المطبوع على جبين والدته بقبلة تشبه الوداع قليلا، وانصرف يحثّ الخطى نحو الحقل. كان كلّما اقترب سمع أصواتا نسائيّة غير واضحة، وصدى ضحكات تتردّد بين الفينة والأخرى. وجد نفسه وجها لوجه مع العالم الذي كان محرّمًا عليه إذن.

ها هو ذا يلجُه لأوّل مرّة والتي قد تكون الأخيرة ربّما.

اتّخذ لنفسه موضعًا بين الأشجار في محاولة لإخفاء طوله بحيث لا يمكن لأحد رؤيته. لقد كان متأكّدا أنّ لا أحد يستطيع التّعرّف عليه وهو تحت حايك أمّه الذي كان يبعث في قلبه شحنة من الأمان. عاد به الحنين إلى زمن ليس ببعيد جدًا بالنّسبة لفتى في الرّبيع السّادس عشر من عمره. رأى طيفه الصّغير يركض مرتميًا بين أحضان أمّه، مستنجدًا بقلبها كلّما شعر بخطر يتربّص به.

وبينما هو غارق في حلمه اللّذيذ ذاك، انتبه إلى الهدوء الغريب الذي خيّم على المكان. هدوء تلاه صوت غناء جميل أشبه بالبكاء. خيّل إليه أنّه أكثر عذوبة من أيّ صوت سمعه قبلا.

"أيمّا ما نتزوجش وما نحنيش إيديا، حتى تستقل الجزائر وندّي واحد من الثّوار..."[1]

كانت جالسة على صخرة كإلهة يونانيّة أو إغريقيّة قديمة، خرجت لتوّها من أسطورة ليست كالتي سمع عنها من أمّه في ليالي الشّتاء والبرد اللاذع. تحلّقت حولها الأخريات في صمت وإعجاب، وكأنّهنّ قد بايعنها مسبقا على توحيد مشاعرهنّ المعلّقة إلى حين.

١ "أيا أمّي، لن أتزوّج ولن أضع الحناء حتى تستقلّ الجزائر، وأتزوّج واحدا من الثّوار"، من أغاني النّساء الجزائريّات إبان ثورة التحرير.

"أحسنت صفيّة، لا تتوقّفي". صاحت إحداهنّ ثمّ فجّرت زغرودة هزّت أوراق الأشجار وأيقظت العصافير من قيلولتها الصّباحيّة.

"أجل، لا تتوقّفي صفيّة. واصلي العزف على أوتار قلبي المحموم". همس لنفسه "صفيّة، صفيّة"... كرّر اسمها بضع مرّات كي لا ينساه ربّما، أو ليستشعر وقعه على أنفاسه المختنقة.

كانت عيناها أسود من حظّه، وملامحها خالصة من كلّ عيب. كانت هي المختارة إذن. كان قدّها نحيفا كساق وردة خجولة، ورغم قصر قامتها إلّا أنّها كانت قريبة جدّا إلى السّماء.

وضع يده على صدره ليتحسّس قلبه الذي كان يخفق بشدّة وكأنّه يكتشف وجوده لأوّل مرّة. أحسّ لأوّل مرّة بشعور لم يعهده قطّ. أحسّ بالحياة! لو كانت الحياة إحساسا، فهي حتما ما كان يشعر به حينها.

ولو كان للحياة مرادف فهو قطعًا صفيّة... هكذا عرفها، نبضًا، شهقة وحياة أصبح فؤاده المسكين معلّقا بجدائل شعرها، التي كانت تشاكس خصرها في خفّة كلّما تحرّكت. تسمّر في مكانه داخل العدم، وبقي قابعًا هناك حتّى انتشله الوقت من حلمه الجميل ذلك بحركة واحدة. رآها تنصرف على مرأى منه، و تبتعد ببطء.

خيّل إليه لوهلة أنّه بدويّ تاه عن قافلته في الصّحراء، ولمح من بعيد واحة غنّاء اكتشف حين اقترب منها ولم تقبض يده سوى على الرّمل السّاخن، أنّها لم تكن سوى سراب. قضى ليلته تلك، متقلّبا على فراش الشّوق والارتباك. كان ذلك الإحساس جديدا كلّيا، لم يعرفه قبل ذلك اليوم.

"تريد الزّواج من مجاهد إذن!"، أطرق قليلا ثمّ قال لنفسه مرّة أخرى: "أنا مجاهد". وأردف: "لقد قتلت فرنسيّا وسأنضمّ إلى الجبهة لا محالة، إذن أنا بذلك مجاهد وسأتزوّج صفيّة ما أن ننال الاستقلال".

كانت تلك أوّل مرّة يحدّثني جدّي عن حبّه. كانت أوّل مرّة يفتح قلبه. أوّل مرّة أرى دموع جدّي... لديه مشاعر إذن! قصّة كفاحه أحفظها عن ظهر قلب فقد رواها لنا في أكثر من مناسبة، لكنّه تعمّد دائما إخفاء تفصيل صغير يُدعى صفيّة!

قبل أيّام تلقّينا دعوة لحضور حفلة على شرف المجاهدين، ويبدو أنّ ذلك فتح على جدّي أبواب الماضي ونوافذه. لا أدري لماذا ائتمنني أنا بالذّات على سرّ كهذا، لكنّني كنت سعيدًا بذلك ومتفاجئا في الوقت عينه. بقي سؤال واحد يدور بخلدي، ماذا حلّ بصفيّة تلك،

وأين هي الآن؟ تردّدت في سؤال جدّي، لا شكّ في أنّه يجهل مكانها هو الآخر.

لم أكن أريد الذّهاب إلى تلك الحفلة، فأنا لم أحبّ يوما أن أكون محاطا بأصحاب البدل وربطات العنق المتكلّفة، ولطالما كنت أمقت طريقة كلامهم المبتذلة، مزاحهم الثّقيل ونفاق ابتساماتهم المصطنعة. لكنّ جدّي أصرّ على أن أرافقه كي لا أنسى تاريخ بلادي على حسب قوله. عن أيّ تاريخ كان يتحدّث يا ترى؟ عن ذلك المدوّن في الكتب بحروف من فخر وتباهٍ؟ أم ذلك الذي كان يحُاك خلف الكواليس بأصابع قذرة؟

ارتديت ملابس عاديّة ولم أجهد نفسي في التّأنّق، فقد كان يومًا كغيره من الأيّام في نظري. دخلنا القاعة التي كانت تعجّ بأشخاص في نفس العمر تقريبًا (كهول وشيوخ).

تكوّنت شيئا فشيئا مجموعات عشوائيّة هنا وهناك. بالكاد أشحت بنظري عن جدّي فلم أجده. كان الجميع في سباق للبحث عن مجاهد لاستثارة ذاكرته. أردت أن أختلي بنفسي، فبقيت عند المدخل أحدّق دون هدف ببعض اللّوحات الزّيتيّة التي كانت مرصوصة إلى جانب بعضها في صمت.

عرفت فيما بعد أنّ اللّوحات كانت لرسّام شابّ لم أعد أتذكّر اسمه.

مرّ الوقت بطيئا، وبدأت أحسّ بخدر في دماغي من شدّة الملل.

اخترت لنفسي مقعدا في الصّف الأخير بجوار جدّي ورفيقه الحاج الهاشمي الذي أهدته له ثورة نوفمبر. عمّي الهاشمي كان الجسر الذي ربط جدّي بالثّورة، فقد كان مسؤولا عن خليّة هنا في فرنسا وهو الذي ساعده على الانضمام رسميّا إلى الجبهة وكان بمثابة الأخ الأكبر له في غربته. بعد الاستقلال تخلّى عمّي الهاشمي عن سنوات كفاحه وأحرق الأوراق التي تثبت أنّه كان مجاهدًا. سألته مرّة عن سبب فعلته تلك، فقال: "أنا لم أخدم الجزائر سوى حبّا لها.

تنازلت عن عمري لأجل عيونها منذ البداية، نحن جئنا لنموت يا ولدي!"

صمت قليلا كمن يزن كلامه قبل نطقه، ثمّ أضاف بحسرة: "أمّا من باعوا الجزائر ليشتروا ربطات عنق... فذلك شأنهم، والله لا ينسى أحدًا". فهمت يومها أنّ الرّجل يُرحّب بالموت في سبيل امرأة يعشقها وفي سبيل وطن، ذلك أنّ المرأة والوطن وجهان لعملة واحدة، فكلاهما يعطي الرّجل شعورًا بالانتماء.

فجأة خيّم صمت كليّ على القاعة عقب اعتلاء فتاة عشرينيّة المنصّة. كان الارتباك باديًا عليها، لكنّها أحكمت قبضتها على زمام أعصابها بنفس طويل واحد، ثمّ قامت بمسح وجوه الحضور بنظرة سريعة وأحاطت نفسها بهالة من اللامبالاة كأنّها اعتادت إلقاء خطابات كلّ صباح، وصار الأمر اعتياديّا بالنّسبة لها.

شيئان أثارا دهشتي وحيرتي وكثيرًا من التّساؤلات، أوّلهما خطاب تلك الفتاة الذي كان باطنه يحمل الكثير ممّا لا يمكن لأحد من الحضور فهمه، وكأنّها رسالة مشفّرة. أمّا الثّاني فقد كان ردّة فعل جدّي لدى رؤيتها. لماذا تغيّر لون وجهه يا ترى؟ أيعقل أنّه يعرفها؟

لكن لماذا اغرورقت عيناه بالدّموع ما إن لمحها؟ فضّلت ألّا أسأله عن سبب ارتباكه خوفا من انتهاك خصوصيّته، واحتراما لصمته.

الأشخاص الذين يأتون صدفة، ليسوا سوى اختبارٍ للذّاكرة.

عمّ الضّجيج القاعة من جديد، وبقي جدّي صامتا هادئا على غير عادته. كانت نظراته شاردة ومرتبكة، كأنّها تبحث عن وجه ما. أخذ يشقّ له دربًا وسط الحشد متجاهلا كلّ من حيّاهُ لدى مروره، فلحقت به غير مدرك لما يحصل. تفاجأت بجدّي يتّجه نحو الفتاة مخاطبًا إيّاها بنبرة فيها شيء من العتب: "لماذا لم تتحدّثي عنّي يا صفيّة؟"

لم أجد ما أقوله أمام دهشة الفتاة، فلم أملك سوى أن أكسر غرابة الموقف بتلعثم طفل يتعلّم النّطق: "ال..ال..معذرة، جدّي متعب قليلا وقد اختلطت عليه الأمور..." "كيف عرفت اسمي يا حج؟ لا أذكر أنّنا التقينا من قبل!" نزل عليّ جوابها كسطل ماء بارد جدّا جدّا. لم أعد أفهم شيئا، أيعقل أن تكون مزحة يريد جدّي النّيل منّي بها؟ أكيد، فذلك ليس مستبعدًا أبدًا، لطالما كانت له روح مرحة تهوى المقالب. على الرّغم من تقدّمه في السّن إلا أنّه ظلّ عالقا في شقاوة الصبّى ولم يمنعه رأسه المشتعل بالشّيب من ذلك.

"كان عليك أن تتحدّثي عنّي، لماذا لم تتحدّثي عنّي؟ عنّا نحن البسطاء، نحن الذين لا نزال على قيد الحياة... كلّ الذين ذكرتهم لا يحتاجون إلى ذلك فالجميع يعرفهم، ثمّ إنّهم ماتوا جميعهم. في المرّة القادمة تحدّثي عنّي!". قال جدّي متجاهلا سؤالها.

توقّعت أنّها سوف تنزعج من كلامه وأنّ وجنتيها ستشتعلان خجلا، لكنّ جوابها كان جاهزا كوجبة سريعة. "لا بأس، سأخصّص كتابا لك وحدك لكن أرجوك لا تغضب منّي!". وابتسمت.

لم ينبس جدّي ببنت شفة ونحن عائدان إلى المنزل. لطالما أخافني صمته، فهو يعني أنّه ليس بخير.

فـور وصـولنا أخبرني أنّـه متعـب جـدّا ويريـد أن يخلـد إلى النّـوم مباشرة، فتركته يتصرّف على راحته، لكنّ قلقي كان يتفاقم ورأسي كاد ينفجر من كثرة التّساؤلات. ما الذي حصل هناك؟ وأيّ موقف كان ذلك؟ شعرت بأنّني أقف خارج الزّمن، وأنّ كلّ ما حولي يتحرّك ببطء شـديد جـدّا. لـم يعـرف النّعـاس طريقـا إلى جفـوني ليلتهـا، وبقيت أنتقل من كتاب إلى آخر دون هدف. مع اقتراب أولى ساعات الفجر، ساقني الظّمأ إلى المطبخ بحثا عن شربة ماء.

كان باب غرفة جدّي مواربا يتسلّل منه ضوء خافت.

اقتربت قليلا وألقيت نظرة خجولة، فلمحتُ جدّي ساجدًا.

بقيت أنظر إليه و تذكّرت كم كنت أحبّ أن أراقبه وهو يصلّي حين كنت صغيرًا. كان لذلك المشهد هيبة خاصّة، فأثناء الصّلاة فقط كنت أرى تجاعيد وجهه في حالة خشوع واستسلام تامّ، وكان هذا يروق لي كثيرا لسبب أجهله. انتظرت حتى فرغ من صلاته، ودخلت إلى غرفته دون استئذان. جلست بجانبه ولم أصدر صوتا، وهو الآخر لم يقل شيئا.

رمقني بنظرة حزينة لم أفهم معناها. كانت أوّل مرّة أعجز فيها عن فكّ شيفرة هدوئه، فقد كان صديقي أيضا (ولربّما كان الوحيد).

"إنّها صفيّة..." "تقصد الفتاة التي قابلناها اليوم؟". كنت متأكّدا من أنّه كان يقصدها هي، لكنّني سألته حتى لا أترك مجالا للصّمت من جديد.

"إنّها حفيدة صفيّة...صفيّتي...حلمي البعيد!" "كيف عرفت ذلك؟".

يا لها من صدفة موجعة تلك التي وضعت جدّي وجها لوجه مع الماضي... وحلمه البعيد. ازدادت حيرتي وتساؤلاتي، لكنّ الصّورة أضحت أكثر وضوحًا، على الأقلّ عرفت سبب انزعاجه و حزنه.

تأكّدت الآن أنّ لتلك الفتاة يدًا في تعكّر مزاجه، لكنّني لم أكن أعرف كيف أو لماذا. الآن فهمت لماذا اختار لها اسمها، لكنّني بقيت أجهل كيف تعرّف على ملامحها. أيعقل أنّها تشبهها إلى هذا الحدّ؟ تشبهها إلى أيّ حدّ يا ترى؟!

بعد سنة من انضمامه إلى جبهة التّحرير، نالت الجزائر استقلالها سنة ١٩٦٢. كان يمنّي نفسه بالعودة إلى الوطن والزّواج من صفيّة. لكنّه فور رجوعه اصطدم بواقع أكثر بشاعة من الحرب. تزوّج حلمه عشيّة الاستقلال من أحد "الثّوار". اكتشف حينئذٍ أنّ كلّ أحلامه لم تكن سوى جراح ظلّت محفورة على ذاكرته، فالجزائر لم تعد له ولأمثاله، وصفيّة هي الأخرى لم تعُد من حقّه.

اختار أن يهرب من مصير خاف أن يلاحقه، فعاد إلى فرنسا يجرّ خيبته خلف حقائبه.

أخبرني جدّي أنّ صفيّة وزوجها هاجرا إلى فرنسا بعد أن أنجبا بنتا. كان الحنين والألم يدفعان به إلى مراقبة خسارته من بعيد لسنوات توالت في تثاقل، كأنّها نُسجت من العدم. وكأنّه أصرّ على معاقبة نفسه على ذنب لم يقترفه...

ماتت صفيّة وهي تُهدي العالم مولودها الثّاني! لم يبقَ لجدّي منها سوى أبنائها. لكنّه لم يحبّ أحدًا منهما كما أحبّ صفيّة "الصّغيرة"، حفيدتها التي خرجت من رحم أمّها نسخة عن جدّتها، بنفس لون عينيها واتّساعهما، نفس لون البشرة واحمرار الوجنتين.

ورثت عنها نفس الجدائل حين كبرت، وأخذت منها حتّى اسمها.

وكأنّ صفيّة عادت للحياة مجدّدا من خلال تلك الفتاة التي عاتبها جدّي لأنّها لم تتحدّث عنه وهي التي لم تكن تدري بوجوده أصلا، وكأنّه يعاتب جدّتها في زمن مضى لأنّها تخلّت عنه مع أنّها لم تدر يوما أنّه كان واقفا بين الأشجار ذات جنون، يراقبها من خلف حايك أمّه...

❊ ❊ ❊

رائحة الموت

لم أعرف قبل اليوم أنّ للموت رائحة، رائحة الغربة، ورائحة الفراق. للموت طعم الاشتياق، طعم مرّ يبقى مدسوسًا كغصّة في الحلق نختنق بها شيئا فشيئا، ببطء وألم. لم أقدر على تمالك عبراتي المستنجدة برموشي المثقلة بالخسارة، فبكيت... كثيرًا.

كانت أمّي تقول لي دائما أنّ الكبار لا يبكون! لكنّني اليوم لست سوى طفل صغير... صغير جدًا.

فقدت اليوم آخر حلقة كانت تربط حاضري بماضيه، وكان ذلك كفيلا بزجّي في غياهب الضّياع. اليوم فقط فهمت لماذا يقول الأحبّة أنّ لا شيء غير الموت يمكن أن يفرّق بينهم.

الموت والفراق مترادفان من طرف واحد؟ حين يفترق اثنان فهناك أمل في عودتهما، لكن إذا مات أحدهما فهل من سبيل للرّجوع؟

الموت يقضي على الأمل، وعلى الحياة.. ونحن نشيّع جنازة جدّي ظهرًا، غمرني شعور غريب جدّا لأنّه لم يكن بجانبي، هذه المرّة مشيت وحيدًا إلى المقبرة. كنت أرافقه إلى سريره كلّ ليلة لأطمئنّ أنّه سيخلد إلى النّوم، لكنّني لم أتصوّر أبدًا أنّني سأرافقه يوما إلى سرير جديد لن يغادره مجدّدًا! كنت أتساءل إن كان سينام مرتاحًا، فهو لم يتعوّد على تغيير مخدعه. هل هو نائم حقّا أم أنّه ميت؟!

كنت بالفعل طفلا يبحث عن إجابة مريحة، حتى و إن لم تكن منطقيّة ذلك لا يهمّ، المهمّ أن أعرف "أين جدّي الآن!". هو حتما ليس في الجزائر، فقد رفض أن يُدفن فيها بعد أن عاش عمرًا بعيدًا عنها.

لم تكن الجزائر بالنّسبة له وطنا للموت، فقد تجرّعتْ منه ما يكفي لأكثر من مائة صيف. لم يكن يريد لها سوى الحياة.

سحبت نهر الغارون من ضفّته وبقيت أمشي معه لمدّة لم أحسب عمرها بالسّاعات، علّه يغسل عنّي هذا الشّجن الكريه. لكنّي تعثّرت بروح جدّي هنا أيضًا، وانتبهت إلى أنّها المرّة الأولى التي أمشي فيها وحدي، في هذا المكان الذي يليق بكلّ أنواع المشاعر، ولعلّه يرحّب أكثر بالحزن كاعتذار منه عن غياب البحر.

انتبهت كذلك إلى أنّني غريب عن هذه المدينة لفرط معرفتي بها! حين يعيش المرء في مكان ما لمدّة طويلة ويصبح جزءًا منه، قد ينسى أن يستكشفه مجدّدا من حين لآخر، ممّا قد يخدش كبرياء شوارعه الخلفيّة، فتقف المباني في لامبالاة وتنفض عنها بريق اللّقاء الأوّل. الأماكن تشبه النّساء كثيرًا، كلاهما تشعر بالإهانة إن تجاهلنا حُسنها.

استسلمت للمشي، ولحزني. لم أنتبه إلى أنّ "أودري" أمطرت هاتفي الصّامت اتّصالات ورسائل قصيرة. فتحت الرّسالة الأخيرة التي بدت لي مستفزّة أكثر من أودري نفسها، مع أنّني لم أكن أعير اهتمامًا لذلك قبلا.

"أين أنت؟ كان من المفترض أن تأتي لأخذها منذ أربع ساعات!!!"

جعلتني تلك الرّسالة أتساءل: "إلى أيّ حدّ يمكن أن تصبح هذه المرأة باردة؟".

ثـمّ فكّـرت في سـارة، التي كـان يجـب أن أذهـب لأخـذها منـذ أربـع سـاعات! أصابني الذّعر لمجرّد التّفكير في احتمال أنّ ابنتي يمكن أن تصاب بنوبة الصّقيع تلك كأمّها... شعرت فجأة كم أنّني اشتقت إلى رائحتها البريئة وكم أنّني متلهّف لرؤيتها، علّها تطرد الحزن بعيدًا... فالحزن يخاف بهجة الأطفال.

رحت أحثّ الخطى نحو منزل أودري الذي لم يكن بعيدًا. طرقتان خفيفتان كانتا كافيتين لجعلها تترك كلّ ما كان وراءها وتركض نحو الباب، لتستقبلني بوجه عابس و نظرات مليئة بالغضب وبالعتب. توقّعت أنّها ستنفجر في وجهي ما إن تراه، وكان ذلك ما حدث. ربّما كان هذا أشدّ ما كرهته بشأنها، تصرّفاتها متوقَّعة دائمًا. ربّما كنت أنا المفاجأة الوحيدة التي حصلت في حياتها، فزواجها برجل أسود الشّعر والعينين، لم يكن من المحتمل حدوثه. أمّا الطّلاق فقد كان ضمن خطط القدر.

"هل سارة جاهزة؟". سألتها متجاهلا أسئلتها المتتالية اللامتناهية.

لم أفهم يومًا لماذا كانت تنتظر بفارغ الصّبر أن آتي لاصطحاب سارة معي، وكأنّ الصّغيرة تُعطّلها عن الرّاحة. صغيرتي هادئة جدًا وكأنّها قرّرت ترك عالمنا هذا لتعيش في عالم مواز أقلّ ضجيجًا.

تشبه أمّها في كلّ شيء من الخارج وتختلف عنها كلّ الاختلاف من الداخل. ربّما لم تأخذ مني ملامح وجهي أو لون شعري، لكنّها من دون شكّ ورثت عنّي طفولتي بكلّ تفاصيلها الصّغيرة.

في طريقنا إلى البيت كنت في صراع مع أفكاري. لم أكن متأكدًا مما سأقول لها إن سألتني "بابا، أين جدي؟". لكنني كنت مطمئنا لوجودها معي. لم أكن سأقدر على مواجهة الفراغ بمفردي، و كنت على ثقة بأنها ستخفّف عني. لأول مرة شعرت أنني أحتمي بطفلتي ذات الخمس بتلات. لطالما كانت تركض لتختبئ خلفي حين تخاف، أمّا اليوم فأنا من كنت أختبئ خلف ابتسامتها البريئة من الموت.

❊ ❊ ❊

هدية

شروق الشّمس هو أكثر وقت أترقّبه في النّهار، فالأشياء الجيّدة والسّيئة لا تحدث إلا في الصّباح. كلّها، بجميلها وبشعها إن لم تحدث صباحًا فلن ترى النّور بعده. أو هذا ما علّمتني التّجربة.

أنا أنتظر ساعي البريد هذا الصّباح، كما أفعل كلّ صباح. لعلّه سيأتي اليوم كما كان من الممكن أن يأتي البارحة.

لكنّ الصّدفة كانت تدبّر لي موعدًا من نوع آخر. وما أشدّ حاجتي لهذا الموعد، فقد كان الجسر الوحيد الذي يصل بيني وبين ما سلبه منّي الموت. تفاجأت بعمّي الهاشمي وهو يدخل عليّ وفي يده صفيّة!

كانت فرحتي برؤية عمّي الهاشمي تضاهي فرحتي برؤيتها هي الأخرى. فقد كان هو نسخة عاقلة عن جدّي وكانت هي نسخة عن قلبه... أخبرتني أنّها كانت تحاول إيجاد جدّي، لتتحدّث عنه، كما طلب منها، لكنّها حين عثرت عليه، كنت أنا الشّيء الوحيد الذي تبقّى منه! وكأنّها أتت لتُفتّق جراحي وتضمّدها في آن واحد... لم أفهم حاجتي الملحّة لأن أضمّها إليّ لأختبئ فيها من ألمي. أنا لا أعرفها، لكنّه كان يعرفها، حتّى قبل أن تخرج إلى العالم بابتسامتها الخجولة تلك التي أراها اليوم حزينة.

اعتذر عمّي الهاشمي وانسحب في هدوء ليعود إلى زوجته، التي راح المرض يأكل جسدها يومًا بعد يوم.

على الرّغم من ذلك، لم يتوقّف يومًا عن الوفاء لها، أو على الأقلّ لكلّ تلك السّنوات التي جمعتهما تحت سقف واحد. لعلّ أكثر شيء أحبّه في عمّي، هو وفاؤه لكلّ من رافقه في رحلة حياته التي أصبح يترقّب نهايتها كلّ مساء، منذ رحيل جدّي.

كان يعلم أنّ دوره قادم، وأنّه على قائمة الانتظار منذ بضع سنوات، وهو يرى أقرانه يسقطون في جوف الأرض واحدًا تلو الآخر دون إنذار مسبق. فالموت يعشق المفاجآت.

جلست أمام أكبر أسرار جدّي، ولم يكن بيننا سوى الصّمت وكأس ماء باردة. أردت تأثيث تلك المساحة ببعض الكلام، فلم أجد ما أقوله، أنا الذي لم أعهد السّكوت في حضرة امرأة. لكنّ هذه المرأة بالذّات كانت في كلّ مرّة تجرّدني من صوتي، وتستولي على هدوء أعصابي.

"تريدين قهوة؟". لا أعلم لماذا ورّطت نفسي بهذا السّؤال، لطالما كنت فاشلا في إعداد القهوة. ربّما قرأت الذّعر على احمرار وجهي، فقررت أن تنقذني لطفا منها.

"حليب لو أمكن، فأنا لا أشرب القهوة!"

لم أكن أتوقّع أنّها لا تشرب القهوة، تمامًا كما لم أكن أتوقّع زيارتها. رغم أنّ امتناعها عن شرب القهوة ليس بالأمر العجيب، إلا أنّه فاجأني لسبب أجهله. لم تتوقّف عن مفاجأتي منذ أوّل لقاء جمعنا، لذا بدأت أتساءل إن كان في جعبتها المزيد أم أنّها سوف تتوقّف عند القهوة...

أخبرتني أنّها تخرّجت حديثا من كليّة الإعلام، وأنّها تعمل صحفيّة لحساب إحدى الجرائد المحليّة. ثمّ رمت في وجهي بمفاجأة أخرى.

"أقوم بالكتابة إلى جانب عملي، وأودّ أن يكون أوّل كتاب لي عن جدّك، عن حياته وتجاربه يعني...". توقّفت لبرهة وكأنّها تعتذر أو تعيد ترتيب أفكارها ثمّ واصلت، "بما أنّه ليس موجودًا ولم يبق أمامي غيرك، فكّرت في أنّك لن تمانع في تزويدي بمعلومات عنه... من المؤكّد أنّه قصّ عليك مغامراته أثناء الثورة، وربّما بعدها أيضًا، كسبب تركه للجزائر على سبيل المثال".

ازدادت الأمور تعقيدًا داخل رأسي، ولم أعرف بم أجيبها. هل أقول لها أنّه ترك الجزائر لأنّ جدّتها تركته؟ لكنّ السّؤال الأهمّ كان: هل لي الحقّ في تعرية أسرار جدّي دون إذنه؟ كان عليّ الحفاظ على خصوصيّته، وكان يجب أيضًا أن أحافظ عليها هي. كنت أحتاج إلى وقت مقتطع للتّفكير، فرحت أغيّر الموضوع دون أن أشعر بوقع الخيبة على ملامحها.

"أنت من سيدي بلعباس أيضا؟". سألتها دون تفكير، وكأنّي أحاول التّلميح إلى حكاية جدّي وأجعلها تربط بين النّقاط دون أن أكشف عن الحقيقة كاملة.

"نعم، أنا من مدينة الرّجل الحمامة، أتعرف الأسطورة؟"

"أسطورة؟". أنا لم أعرف أسطورة سوى أسطورة ميديا الإغريقيّة، التي قتلت ولديها انتقامًا من زوجها الخائن.

"أجل، أسطورة سيدي بلعباس البوزيدي الذي تحوّل إلى حمامة!". تابعت سرد ما حدث أمام دهشتي.

أخذت المدينة اسمها من ولي صالح، يقال إنّ الطمأنينة حلّت عليها بفضله. قبل أن يتنكّر الشّيطان في هيئة إنسان ويحرّض السكّان عليه ليقوموا بطرده، لتحاصرهم الأوبئة بعدها فيندمون على فعلتهم.

تنازعت قبيلتان حول من منهما ستحظى بالولي الصالح ليعيش في كنفها، ويحصّنها ببركاته، لكنّه لم يرض بأيّ منهما وأثناء هروبه منهما، تحوّل إلى حمامة بيضاء وطار ليحطّ في الجهة الأخرى من الجبل. منذ ذلك الحين والحمام يحجّ إلى سيدي بلعباس ولا يتركها.

"وهل تعتقدين أنّ كلّ هذا حقيقي؟"

"امم ممكن! لكن فيم تهمّ الحقيقة؟". قالت وكأنّها تذكّرت شيئا مهمًا.

"لأنّ هذه الخرافات تدفع بالنّاس إلى تقديس أشخاص، قد يكون احتمال وجودهم على قيد الحياة معدومًا".

"صحيح ما تقوله، لكنّنا لم نكن لنحقّق شيئا من دون الخيال.."

كانت لديها إجابات لكلّ الأسئلة، ولم تكن تلك الإجابات جميعها منطقيّة. عرفت حينها أنّ عليّ تطليق منطقي لكي أستطيع التّعامل مع منطقها الغريب، والجميل في نفس الوقت. لكنّ الأهمّ من ذلك أنّه كان غير متوقَّع البتّة..

"صفيّة؟ أريد أن أعرّفك على شخص ما... عندما يحين الوقت".

مع أنّ الحيرة كانت بادية على ارتباكها، إلا أنّها لم تسأل عمّا لم أقله لها، واكتفت بقول "حسنا".

"وماذا عن موضوع جدّك؟". سألت في امتعاض، فقد كان جليّا أنّني نسيت تمامًا ما جاءت لأجله.

"ستعرفين ما يجب أن تعرفيه عنه، لكن ليس الآن!"

"ولمَ لا؟".

على غرارها، أنا لم يكن لديّ أجوبة جاهزة للاستهلاك، فقد أصبحت مشتّتا ولم أستطع ضمّ بقاياي إلى بعضها بعد.

اكتفيت بابتسامة، فقد كانت أمّي تقول إنّ ابتسامة واحدة قادرة على حلّ الأمور العصيّة. لكنّني لم أكن أتوقّع أن تبتسم لي هي أيضًا بدورها، ففعلت.

يكفي أن لا أتوقّع منها الأشياء فتقوم بها.

❊ ❊ ❊

الحلزون

كان رجلا يكذب على نفسه كثيرًا. يحاول أن يتصنّع النّضج ولكنّ الطّفل الرّاقد بداخله لا يزال يقاوم بأنفاسه النّاعمة. أمّا أنا، في نظره طفلة جاءت لتعبث بأغراض جدّه القديمة. أعرف أنّه يخفي أسرارًا عديدة، مع أنّه واضح كضوء النّهار. رغم أنّ الغموض كان يغلّف وضوحه ذلك، إلا أنّني عرفت كيف أقرأ ألوان وجهه، و تثاؤبه المفتعل حين يُحشر في زاوية الحقيقة.

"ما الذي يحدث داخل عقلك صفيّة؟". سألني وهو يتفحّص صورة الحلزون التي أهديته إيّاها، داخل إطار ذهبيّ.

فوضى! لا شيء سوى بعض الأفكار المبعثرة وكثير من الأصوات المتداخلة التي أجهل مصدرها.

"وماذا عن قلبك يا صفيّة؟"

الكثير من الحبّ...

"والجنون؟ لا تزالين طفلة تهرب من الواقع."

بل أهرب إلى الخيال! أنت تتنفّس الواقع، أمّا أنا فأحتاج إلى جرعة من الخيال باستمرار. لست على عجل لبلوغ خطّ الوصول، فكلّ حجر على الدّرب له حكاية بحاجة إلى خيالي لاحتضانها.

أترَى ذلك الحلزون؟ أُشبهه كثيرًا.

أبذل مجهودًا عظيمًا كي أتقدّم خطوة واحدة، والأشياء من حولي تندفع بسرعة كبيرة. أمّا أنا فتركيبتي لا تسمح لي بمجاراة كلّ هذا.

مع ذلك، بطئي لا يزعجني إلى ذلك الحدّ. فيما يقطع النّاس مسافة الحياة في طرفة عين، أحاول أنا الاستمتاع بالرّحلة.

كلّ صباح أحيّي تلك النّملة التي كانت تنظر إليّ بتعجّب في البداية ثمّ صارت تتجاهلني عن قصد أو عن تعوّد ربّما! لا أفهم لماذا هي مستعجلة هكذا وفي توتّر دائم، ألا تستحقّ تلك الأزهار أن تتوقّف برهة من الزّمن للتّغزّل بها؟

سمعت أنّ الأزهار تذبل حين ينقضي الرّبيع، لأنّه الفصل الوحيد الذي يقع في غرامها من بين كلّ الفصول، لذلك تُفضّل الرّحيل معه كلّ عام إلى حيث يذهب.

"تُرى أين يذهب الرّبيع؟"

إلى مكان جميل حتمًا. ماذا لو كانت الأزهار تذبل حدادًا على فراقه؟ لعلّه يرحل بسبب الغيرة! أجل فمن طبع الرّجل أن يَشْتعِل غيرة حين تتّجه جميع الأنظار صوب محبوبته. وبما أنّ الأزهار تستعرض جمالها على مرأى منه، فإنّه بكلّ بساطة يهجرها.

من طبع الرّجل أيضًا أن يختفي في صمت، حتّى لا يسمع أحد صوت تحطّم قلبه. للرّبيع كبرياء الرّجال إذن!

أتعلم؟ لو أنّني لا آخذ وقتي في الزّحف ببطء نحو قدري، لما سمعت ذلك الجدال الذي يعود كلّ عام بالحلّة نفسها بين الرّبيع وأزهاره...

"ما الذي حصل؟"

لا عليك، المهمّ أنّ العصافير تدخّلت لتلطيف الجوّ وغنّت للجميع.

غنّت للحبّ! لو أنّني أسرعت لما سمعت زقزقة العصافير...

إنّه لفعل مشين أن لا تستمع لغناء العصافير، يخدش ذلك مشاعرها.

"ماذا عن الحلزون؟" سألني في محاولة لمسايرة هذياني.

ماذا عنه؟ تركته هناك حيث كان صباحًا. وحين عدت مساءً كان قد رحل، مع أنّ الأمطار قد عادت. أجد هذا الرّبيع غريبا بعض الشّيء. غابت عنه خيوط الشّمس مطوّلا ونابت عنها الأمطار بغزارة. شيء ما يحدث بين طيّات الغيوم.

"وما هو؟"

وحده الحلزون يعرف، رأيت ذلك في نظراته، إنّه يعلم سرّا نجهله جميعنا...

"وهل للحلزون عينان؟"

لم أقل أنّ له عينين، بل له نظرات! حتى الأشجار، أرأيت كيف تنظر إلينا؟ وللقمر نظرات أيضًا، لكنّها حزينة وهادئة. أنا متأكّدة بأنّ للنّجوم يد في ذلك.

"أهي سبب شجنه؟"

لا، بل هي سبب هدوئه، والهدوء أشدّ ألما من الحزن.

إنّنا نبكي حين نحزن، لكنّنا حين نهدأ لا يسعنا فعل شيء، وكأنّنا مُكبّلون بالصّمت.

تتصاعد شحنة الأدرينالين داخل عروقي، مع تسارع وقع قطرات المطر على الأرض. تلك الرّائحة أعرفها جيّدًا. شذا تراب البلاد ممتزج بعطر الغيث.

الغريب أنّه لم يكن هنالك أيّ تراب من حولي.

ظلّ غبار تلك الرّائحة عالقا بأنفي منذ آخر صباح مبتلّ أصبحت ملامحه باهتة في ذاكرتي المتعبة. رغبة ملحّة في اللّعب تحت المطر تختلج صدري. فتاة صغيرة ترقص أمامي بأقدام حافية تحت غضب السّماء،

تعبث بأعصاب الطّبيعة وتحاول استثارتها في شقاوة مسائيّة بتوقيت الجنون.

تلك الصّغيرة تشبهني أيضًا، تشبهني حدّ التّطابق وربّما تكون أنا في منطق آخر.

❊ ❊ ❊

التقينا..

وبعد

كنت منهمكة في القراءة بين طيّات الخيال، حين جاءني صوت والدك خافتا ليقطع حبال شرودي معلنا عن حضوركما.

حين رفعت رأسي كنت أتوقّع رؤية أخيك، لكنّك كنت هناك بدلا عنه ممسكة يد أبيك برقّة. كنت تقفين محدّقة بي ببراءة الطّفولة ودهشة اللّقاء الأوّل. سلّمت عليك في ذهول وانصرفنا. لكنّك ظللت تنظرين إليّ وكأنّك تريدين وبشدّة معرفة من تكون هذه المرأة الغريبة التي وضعك أبوك وجهًا لوجه أمامها بدون مقدّمات.

أو كأنّك كنت قد رأيتني من قبل لكن لا تذكرين أين أو متى... كنت أشعر بنظراتك تلاحقني وتلتهمني بفضول وكأنّك تريدين أن تطبعي صورتي على ذاكرتك كما في الوداعات الأخيرة في المطارات... لقد فجّر فيّ لقاؤك بركانًا من المشاعر والأحاسيس المتناقضة.

كنت سعيدة لوجودك وخائفة في نفس الوقت! تبادلنا نظرات ذات معنى من حين لآخر وكأنّ وجود والدك كان يمنعنا من قول ما نعجز عن قوله حتّى في غيابه. كانت نظرتك توحي بأنّك تعرفين كلّ الحكاية.. أو ربّما تحسّينها. لكنّ عقلك الصّغير غير قادر على استيعابها، ففي عالمك الطّفوليّ لا وجود لأحد سوى ماما وبابا.

براءتك لا تستهويها مثلّثات الحبّ التي لا ملامح لها. تردّدت كثيرًا قبل أن ترتمي بين أحضاني ثمّ انسحبتِ على عجل. وكأنّك بذلك تعتذرين من أمّك عن شبه خيانة لم ترتكبيها. لقد كانت تقف كحاجز بيننا، كانت الحاضرة الغائبة في هذا اليوم، لكنّك رغم ذلك كسرتها وعبرت إليّ وكأنّني أغريتك إلى التّمرّد بابتسامة.

لو تدرين كم كنت أودّ أن أضمّك بين ذراعيّ وألثم جبينك الصّغير كعربون شكر على شحنة الفرح التي بعثتها في قلبي المحموم لرؤيتك، وربّما لكي أعوّض عمّا فاتنا من عمر لم يمنحنا فرصة اللّقاء.

مددت إليّ يدك الصّغيرة فأحسست فجأة بموجة حنان عارمة تجتاح جسدي الهزيل. أخذنا نسير معًا جنبًا إلى جنب بأياد متشابكة وكأنّك قرّرت فجأة أن تهبيني ثقتك. كنّا نسير جنبًا إلى جنب بتواطؤ طفلتين لم تفقها في الدّنيا سوى الضّحك والاستهزاء بالحزن.

كنت تنظرين إليّ من حين لآخر وكأنّك تحاولين رؤية ملامح أبيك على قسمات وجهي أو لمسات يديه الممرّرة على خصلات شعري، ثمّ تبتسمين لي ببراءة وحيرة.

وبين الفينة والأخرى كنت تتكرّمين عليّ بجرعة منك، فترتمين بين أحضاني أو تمسكين يدي، وكأنّك فهمت مخاوفي فقرّرت التّمرّد على أمّك التي كانت لا تزال بالجوار. في لحظة شقاوة قلت لي: "إذا أمسك بنا صاحب المحلّ سنذهب إلى السّجن، آه وحينها لن أتمكّن من رؤية عائلتي.

" قلت لك بمزاح متوتّر:" لا بأس سأكون معك" فأجبتني بشيء من المزاح الجديّ: "نعم ولكنّك لست أمّي!".

آه يا صغيرتي لو تعلمين... أنت محقّة، أنا لست أمّك لكنّ هذا لم يمنعني من الوقوع في حبّك. كوني لست أمّك لم يمنع غريزة الأمومة من الاستيقاظ بداخلي لتحتويك وتحتوي أخاك.

ما لا تعرفينه يا أميرتي أنّه كان من المفترض أن أكون أنا أمّك.. لكنّ القدر الأحمق قرّر أن يضع شرعيّة بنوّتك داخل رحم آخر غير رحمي. لو أنّ ذلك القدر تمهّل قليلا لكنّا الآن معًا. لكنّه دائما مستعجل، متطرّف في تسرّعه!

ليترك أحلامنا في الأخير جثثا هامدة على قارعة الخيبة ويضطرّنا أنا وأنت أن نتعارف في ظروف وأماكن غير تلك التي كان من المفترض أن نلتقي فيها بأسماء أخرى وهويّات مزيّفة... كان فيك شيء من طفولتي الأولى وشقاوتي الأولى!

رأيت فيك انعكاس صورتي السّابقة بعفويّتك وأشيائك الصّغيرة.

تشبهينني كثيرًا ولا أحد سوانا يعلم بذلك. فيك الكثير منّي والقليل جدّا من كلّ شيء ولا شيء من الآخرين سوى الملامح.

لطالما كانت الأشياء الصّغيرة البسيطة تسعدني أكثر من غيرها، لكنّني لم أتصوّر أبدًا أنّ قطقوطة صغيرة مثلك قادرة على صنع سعادتي من لا شيء بهذه البساطة، وأن تكون قادرة على جعل كلماتي ترفع حروفها على شرفك، وعلى جعل قلمي يكتب بهذه الشّراهة ليملأ المساحات البيضاء لحزني فيلوّنها بك.

❊ ❊ ❊

هموم متناثرة

لم أستقلّ الحافلة منذ سنتين. لكنّ مزاجي ذلك الصّباح لم يسمح لي حتّى بقيادة نفسي!

أعجبتني الفكرة، مجموعة من الغرباء في مركبة واحدة تذهب بهم إلى نفس المكان، لكنّهم يترجّلون منها الواحد تلو الآخر قبل أن تصل إلى المحطّة الأخيرة. يبدو الموضوع بأكمله مستوحى من سفينة نوح، غير أنّ الباص لا يطفو على الماء بل على أحلام الركاب، آمالهم و همومهم التي تقفز من النّوافذ لتسابق الأشجار و تعود إلى أصحابها ما إن تتوقّف المركبة.

أمّا أنا فقد كنت أراقب الرّكاب من حولي و أتخيّل كيف يمكن أن تكون حياة كلّ واحد منهم. كنت أفضّل ألّا أعرف عنهم أكثر من أشكال وجوههم و أجسادهم، لكي أركّب بنفسي قطع الأحجية كما أشتهي، فقد صارت تلك لعبتي المفضّلة التي تلهيني عن التّفكير فيما يرهقني.

دأبت على ركوب الباص كلّ صباح لكي أسرح بخيالي داخل تلك العلبة التي تحمل عوالم و أسرارا كثيرة. استغرب زملائي في العمل من ذلك، لكنّني لم آبه فقد كنت أجد لذّة في تخيّل ما يفكّر فيه أولئك الذين صاروا جزءا من عالمي الجانبيّ الذي أهرب إليه كلّما ضقت ذرعا بما احتسب عليّ كحقيقة. كلّ يوم كنت أرى شيخا يقارب السّبعين عاما يحمل في يده مصحفا صغيرا يقرأ منه ما تيسّر له طوال الرّحلة، ثمّ ينزع نظّارته، يضعها في جيبه و يمضي إلى مشاغله.

في الجانب الآخر أمّ ذات ملامح عربيّة تدفع عربة رضيعها بيد، بينما تمسك يد طفلها الآخر بيد خائفة من ضياعه في الزّحام الصّباحي المعتاد.

أرجّح بأنّ زوجها يذهب للعمل منذ الفجر و لا يعود قبل غروب الشّمس.

من الواضح أنّها من تحمل شؤون البيت و الأولاد على عاتقها، أمّا زوجها فعليه أن يأتي بالمال ليغطّي المصاريف كي لا تضطرّ هي إلى العمل كما شاع بين العائلات المغتربة. اعتاد الولد على رؤيتي في المحطّة فصار يحيّيني بإشارة من يده الصّغيرة و ابتسامة لطيفة لطفل في الرّابعة.

و اعتدت أنا على ذلك، فيومي لا يكتمل من دونه.

نفس الأشخاص يقومون بنفس الأفعال كلّ صباح و كأنّ الأيّام اقتسمت شريطا واحدا فيما بينها تمرّره على عجل حتّى لا تترك المشاهد فارغة، فالفراغ مخيف و قاتل أحيانا. لكنّ هذا اليوم بدا لي مميّزا.

عندما وصلت إلى المحطّة لم يكن هناك سوى امرأة طاعنة في السّن تسند زوجها الذي أنهكه المرض. خمّنت أنّهما يلازمان بعضهما منذ سنوات، و أنّهما تزوّجا بطريقة تقليديّة كما كان يفعل الجميع، لكنّهما لم يتصّورا حياة خالية من أحدهما فتوحّدت أقدارهما و التحمت لتقودهما إلى مصير مشترك.

يبدو أنّهما لم يندما على الاستمرار معا. افترّ ثغري بابتسامة و أنا أفكّر فيما كانت صديقتي ستقوله لو أنّني أطلعتها على ما خمّنته من

مجـرّد النّظـر إلى تشـابك أيـديهما و إحسـاس الأمـان الـذي يغـذّي أحدهما الآخر به.

"ربّما التقيا أمس فقط، و أنت تصنعين مسلسلا من ألف حلقة!". لكنّني اسـتبعدت جميـع الاحتمـالات الأخـرى و أردت فقـط أن أصـنع لهما حكاية جميلة ربّما تمنّياها فيما مضى و لم يحظيا بها، لذا لا شيء يمنعني من أن أهبهما حلما يسعدهما في آخر عمرهما.

❊ ❊ ❊

قلب سعيد

تعابير وجهي من الأشياء الكثيرة التي أعجز عن التّحكّم بها، فتراني أبتسم إن وقع نظري على مشهد لطيف، و ترى دموعي تنهمر لأتفه سبب. كالعادة، لم أنتبه إلى نفسي و أنا أبتسم و أنا أقرأ إحدى مسرحيّات توفيق الحكيم الذي كان الوحيد القادر على إضحاكي من خلال كتاباته فقط، و قد عشت مع حماره أجمل السّويعات وأكثرها مرحا، و صار ذلك الحمار أحبّ إلى قلبي من بعض الأشخاص.

"هل تعلمين من أين تأتي الابتسامة؟" خاطبني صوت متعب لم ألحظ وجوده قبل هذا.

"من أين؟"

"قلب سعيد!"

ابتسمت مرّة ثانية ثمّ غصت من جديد في أفكاري. قلب سعيد؟ و هل قلبي سعيد؟ لم أجد للرّد سبيلا و بقيت أخاطب نفسي، كأنّني نسيت أو تناسيت وجود ذلك الصّوت بقربي.

كانت تلك أوّل مرّة يداعب خاطري سؤال كهذا. هل كنت حقّا سعيدة و أنا أبتسم لذلك العجوز الذي كان يختلس النّظر إلى الكتاب المتربّع بن يديّ في قاعة الانتظار لدى طبيب الأمراض القلبية.

أعتقد أنّ ابتسامتي قد أصبحت تلقائيّة منذ بضع سنوات. أرى النّاس فأبتسم، أحيانا من باب اللّباقة و أحيانا من دون سبب. راح العجوز يروي سنوات شبابه بفرح تارة و بتحسّر تارة أخرى دون توقّف، و كأنّ صمتي منحه المساحة الكافية للكلام. أمّا أنا فكنت أنظر إليه و في رأسي سؤال واحد أعرف أنّه لن يفارقني بعد الآن، أو على الأقلّ سيتردّد عليّ كلّما ابتسمت: هل قلبي سعيد؟

بعد أن خرجت من العيادة أسرعت إلى محطّة المترو. استوقفتني واجهة محلّ لبيع الأزهار، كتب عليها

"أزهار:

لحفلات الزّفاف

لأعياد الميلاد و للمآتم"

لطالما ارتبطت الأزهار بالفرح في مخيّلتي، و لم أكن أحسبها تناسب الأقراح، فكيف لها أن تلوّن الحزن و كيف لها أن تحتمل الوقوف وسط البأس دون أن تستحي من بهجتها.

أزهار لكلّ المناسبات، و لجميع الحالات المزاجيّة، تمكث مكدّسة في المحلّ ترقب مصيرها، فأيّها سوف تشهد عبرة خجولة تنزل على خدّ عروس ترتدي فرحها ثوبا أبيض، و أيّها ستشيّع جنازة رجل ترك خلفه أرملة و حزمة صغار سيعرّيهم غيابه.

أمّا أسوأها حظّا فهي من تجد بتلاتها سجينة على مكتب مسؤول فاسد وضعها أمامه ليخبّأ قبحه خلف حسنها، و مع هذا فرائحة العفن التي تحيط به ستطغى على عبيرها.

و أنا في المترو الذي كان مكتظّا في مثل هذه السّاعة من اليوم لتدافع النّاس نحو منازلهم بعد ساعات من العمل المملّ أو المتعب للبعض، كنت أتساءل إن كانت تلك الأزهار سعيدة بمصيرها أم أنّ الأمر لا يعنيها، و هؤلاء الأشخاص من حولي، أتراهم سعداء؟

إن كانوا كذلك، فلم كلّ هذا العبوس على وجوههم؟ و هل أنا سعيدة فعلا؟ إن لم أكن كذلك فلم أواصل الابتسام؟!

❊ ❊ ❊

هرب

الهرب... كلمة أصبحت تتكرّر كثيرا داخل الأزقّة الخفيّة في لاوعيي. أحببت كثيرا فكرة الهرب. عليّ أن أتلاشى، أتبخّر، و أمحو ملامحي من الصّور التي جمعتنا طيلة هذه السّنوات. أصبحت أفضّل الهرب، لم أعد أحتمل المواجهة. أظنّني لم أخلق لذلك!

"الأصدقاء قد يكسرون قلبك أيضا!" لم أفهم تماما مقصدك حين قلت لي ذلك و أنا أشكو إليك صديقة خيّبت ظنّي. لم أكن أعلم وقتها أنّك قلت ذلك لكي تدافع عن حماقاتك المستقبليّة...

"لكنّ الأصدقاء و جدوا ليسندوا القلب، لا ليكسروه!" قلت بسذاجة من لم يتزعزع إيمانها بعد بالأشياء التي كانت تبدو لها كثوابت لا يمكن أن تتبدّل.

"كانت تطلب منّي ألّا أتغيّر، أن أبقى كما أنا"

"و ما الذي يزعجكِ إلى هذا الحدّ؟"

"أنّها تغيّرت! لقد كانت مختلفة عن البقيّة، متميّزة في كلّ شيء و لا تشبه أحدا.. أمّا الآن، فقد صارت تطمح لأن تكون قطعة أثاث فرنسيّة لتتماشى و الدّيكور المحيط بها!"

"لقد أرادتك أن تبقي كما أنت، لكنّها لم تعِدك يوما بأنّها لن تتغيّر، أليس كذلك؟"

"لكنّ ذلك مؤلم"

"و يفطر القلب..."

استفزّني كلامه كثيرا. كنت غاضبة من شيء، حتّى من انعكاس وجهي على المرآة. لطالما قلت لنفسي أنّني أملك وجها كاذبا يوهم كلّ من يراه بأنّني طفلة.

و أنا في الحقيقة أحمل في داخلي عجوزا تنتحب لأنّها لم تعد تقوى على هضم التّعب بعد أن تساقطت أسنانها، و صارت معدتها لا تتحمّل ما تلقيه الحياة من خيبات دسمة في جوفها.

كنت غاضبة منه أيضا، ربّما لأنّه كان متيقّنا أنّه ليس كالآخرين، و أنّ بإمكانه أن يحصل على العفو بكلمة واحدة من ستّة أحرف.. "توحّشتك".

كان لهذه الكلمة وقع غريب في نفسي، على الرّغم من بساطتها إلّا أنّها كانت تملك قوّة ألف نصّ! كلمة واحدة تنقص من عمري عشرين سنة و تجرّدني من كلّ ذرّة عقل أملكها، لأعود طفلة من جديد.

حين نستوحش لشخص فذلك يعني أنّنا نحسّ بالوحدة و الوحشة في غيابه. أعلم جيّدا أنّه شعور مؤلم و غريب، و هذا ما زاد من حيرتي. لم يخطر ببالي أبدا أنّ رجلا يحتمل عدم رؤيتي كلّ هذا الوقت، بإمكانه أن يفتقدني...

سألته يوما إن كان نادما على الوقت الذي يقضيه برفقتي، و كان جوابه غير متوقّع...

"بل أندم على كلّ دقيقة أقضيها بعيدا عنك!"

كلمة واحدة كانت كفيلة بإعادتي كلّما ابتعدت، كلّما حاولت الفرار و التملّص من الألم الذي لم يعد يفارقني و كأنّه هو الآخر "يتوحّشني".

كنت أرحل و أعود مرارا و تكرارا. كنت أحلم كثيرا، حتى اختلط الواقع بخيال يطابقه، و لم أعرف الحدّ الفاصل بينهما حتى استيقظ جرس المنبّه داخل رأسي.

❊ ❊ ❊

حلم بعيد

رحلت صفيّة، و اندثرت الألوان التي كانت تنفخ روحا في عالمي الكئيب و تعيد إليه الحياة كلّما تنفّست. الآن فقط أعي حجم حماقتي. شيء ما يجعلني متأكّدا من أنّها لن تعود، ينقبض قلبي لمجرّد التّفكير في أنّني لن أرى ابتسامتها مجدّدا. رحل حلمي الذي ورثته عن جدّي و ابتعد عنّي كما ابتعد عنه تاركا إيّاه وحيدا يصارع الليل و هو الذي لم يكن يملك غير الصّلاة سلاحا.

كان يوم رحيلها أقسى من القسوة نفسها، و كنت أنا أعرف جيّدا أنّ زلّاتي كثرت و تضاعفت، لكنّني أردتها أن تسامحني و أن تبقى إلى الأبد. لم أكن جاهزا لأواصل حياتا لا تملؤها هي بأشيائها الجميلة و صوتها الصّغير الذي مازلت أحبّه كما أحبّ كلّ ما يخصّها.

لم تخبرني بأنّني كنت أكبر هزائمها و أشرسها، لم تخبرني بأنّها لم تعد قادرة على مواصلة مشوار لا تعرف بدايته من نهايته. مع أنّها تعشق المغامرة، إلّا أنّها لم تجرأ على المغامرة بي... أمّا أنا فقد كان هذا الحب كبيرا جدّا بالنسبة لي و لم أجد مساحة كافية تحتويه.

لكنّني حاولت! و فشلت، كما فشلت في كلّ شيء آخر. فشلت في الاحتفاظ بامرأة أعرف أنّها لن تتكرّر في حياتي مرّة أخرى.

و ندمت...

كانت تلك أوّل مرّة أعترف فيها بضعفي، لم أذهب إلى المطار لتوديعها أو حتى لإلقاء نظرة أخيرة عليها. لم أكن لأحتمل رؤيتها تختفي وراء الغيوم، و كنت خائفا ألّا ترجع معي إذا ناديت اسمها وطلبت منها البقاء. كلّ ما أعرفه أنّها مضت تجرّب عجلة الحظّ والنسيان في بلد آخر.

أتراني كسرتها إلى هذا الحدّ؟

أيمكن أن يكون الهرب أرحم من الغفران؟

"حان وقت وداعنا عزيزي."

عرفت مدى جدّية هذا الكلام حين بدأت أفقد توازني أمام ارتباك صوتها، لكنّني لم أفهم. ماذا تقصد بوقت الوداع؟

"سأرحل، و لا أعلم إن كنت سأعود... أظنّ أنّني.. بل متأكّدة أنّني لن أفعل!"

"إلى أين يا صغيرتي؟ لم تغادرين؟".

رغم أنّني كنت أراها طفلة عليّ حمايتها، إلّا أنّها كانت تبهرني في كلّ مرّة أراها تتحوّل إلى امرأة قويّة ناضجة. لكنّها تظلّ صغيرتي التي لطالما خفت أن أراها تكبر و تتوقّف عن الارتماء بين أحضاني حين تشعر بالخوف أو بالملل.

"بعيدا عنك...لأنّني أحبّك!"

تسمّرت في مكاني كالأحمق في انتظار أن تلتفت و تخبرني أنّها كانت تمزح، أنّها تكذب، أو تحاول إثارة غضبي كما تفعل دائما. لكنّ مشيتها كانت جادّة كما لم أرها من قبل، و كانت الرّيح تدفع بشعرها إلى الأمام كأنّها تستعجل رحيلها شماتة بي.

أمّا أنا... فبقيت في مكاني أعدّ خطواتها لأتأكّد من أنّها ليست بعيدة. لكنّ المسافة بيننا راحت تكبر و تكبر حتى غابت عن ناظري.

كثيرا ما نغفل عن رؤية الأشياء الجميلة أمامنا، و نذهب للبحث بعيدا. ذلك الشّعور الذي يأتي بعدها هو ما يسمّى بالنّدم.

إذا كنّا أقوياء بما يكفي، فسنبكي، ثمّ نستعدّ للموت في انتظار وصوله، و إن لم يأت سريعا، نحاول التّعايش مع الحياة فنقوم بكلّ ما يقوم به الأحياء أو على الأقلّ نحاول التّعوّد على وجودها ونواصل الانتظار.

❊ ❊ ❊

الفهرس

تحدثي عني! ٧
رائحة الموت ٢٣
هدية ٣١
الحلزون ٤١
التقينا وبعد ٤٩
هموم متناثرة ٥٥
قلب سعيد ٦١
هرب ٦٧
حلم بعيد ٧٣

ج ٠ م ٠ ع

(+٢) ٠١٠١٨٨٣١٣٦١

(+٢) ٠٣/ ٥٩٣٠٥٧٦

حسناء للنشر والتوزيع

Available on the App Store

ANDROID APP ON Google Play